

الخطاب الإنشائي وبنية المقدمات في مؤلفات الونشريسي
كتاب (المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق) نموذجا
**The Constructive Discourse and Structural Composition of
Introductions in Al-Wansharisi's Works:
A Case Study of the Book 'Al-Manhaj al-Fa'iq wa al-Manhal al-
Ra'iq wa al-Ma'na al-La'iq bi Adab al-Muwathiq wa Ahkam al-
Watha'iq'**



أ. د ديبح محمد*

جامعة ابن خلدون تيارت، مخبر الخطاب الحجاجي في الجزائر، أصوله ومرجعياته، الجزائر

moha-debih@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2025/08/02 تاريخ القبول: 2025/10/19

ملخص:

يهتم هذا المقال بالبحث في المقومات الخطابية والأسلوبية للمقدمات في مؤلفات الونشريسي، والتي تنقسم في غالبيتها بالبعد التعبدي والتعليمي والوعظي، كما يضطلع بتشريح الهيكل الشكلي لخطب مؤلفاته من افتتاح وتمهيد وتموقع وربط وحسن تخلص بين أجزاء الكتاب، وتتبع أهم التقنيات المعتمدة لترسيخ سلطة المؤلف وتوجيه القارئ، مع وصف الأنواع والوظائف التي تكشف عن التنوع الغرضي والتقني في مقدمات الونشريسي، ما بين غايات تعليمية أو تعبدية أو تأصيلية، إضافة إلى تخصيص حيز للحديث عن البناء اللغوي والمنهجي المتبع في كل نوع.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، المقدمات، الونشريسي، الإنشائي، بنية

Abstract:

This article focuses on investigating the rhetorical and stylistic components of the introductions in Al-Wansharisi's works, which are predominantly characterized by devotional, educational, and sermonic dimensions. It undertakes a detailed analysis of the formal structure of his prefaces, including the opening, preamble, positioning, cohesion, and effective conclusion between the sections of the book. The study also traces the principal techniques used to consolidate the author's authority and guide the reader, along with a description of the types and functions that reveal the purposeful and technical diversity in Al-Wansharisi's introductions—ranging from didactic, devotional, to foundational aims. Additionally, attention is devoted to the linguistic and methodological construction employed in each type.

Key words: Discourse .Rhetorical, Stylistic, Structural Composition, Al-Wansharisi

* أ. د ديبح محمد

مقدمة:

إذا كان الخطاب بمفهومه العام فن مواجهة الآخرين بالكلام، فإنه يشكّل في مؤلفات الونشريسي وخاصة في مقدماته نظام صياغة الكلام المؤثر في الآخرين وتنظيمه، والتوجه به إليهم بطريقة معينة تجعله قادرا على التأثير فيهم وإقناعهم بوجهة النظر التي يتبناها المخاطب، وتبرز المقدمات في شكل عتبات تشرف على المتون العلمية، تخضع في كتابتها عند الونشريسي لتقاليد وأعراف دينية وسياسية وثقافية ضمن الزمان والمكان اللذين ألقت فيهما هذه المتون مع مراعاة حال المتلقين للخطاب والسياق العام الصادر فيه. ومن هذا المنطلق نحاول أن نستكشف ملامح وخصائص الخطاب المقدماتي في متون الونشريسي وعلاقته بالمضمون والبناء الكلي لمؤلفاته في مواجهته لفئات مخصوصة من المتلقين. وهو ما يثير لدينا الأسئلة الآتية:

ما هي العناصر الأساسية للخطاب المقدماتي في كتابات الونشريسي؟ وكيف يتم استخدام هذه العناصر لبناء الحجج؟ وكيف يعكس خطاب الونشريسي السياق الثقافي والديني والاجتماعي لعصره؟ وما الدور الذي يلعبه هذا الخطاب في تشكيل هوية الونشريسي ككاتب ومفكر وفقيه؟
قبل التطرق للأسئلة المرصودة سابقا نحاول بداية التطرق لمداخل هذا الموضوع والتي تمثل مهادا نظريا ومفاهيميا لهذه المداخل، ويتعلق الأمر بمفهوم الخطاب في مجال بحثه وخاصة الخطاب الديني الذي يغلب على مؤلفات الونشريسي، ويشرف على العديد من الخطابات الهامشية الأخرى التي تنضوي ضمن الغرض العام للتأليف، وهو ما تكشف عنه مقدمات الكتب التي ألفها الونشريسي، والتي تخضع في تحريرها لفنيات كتابة المقدمة عند المتقدمين من العلماء والفقهاء العرب.

أولاً: مفهوم الخطاب الديني في الدراسات الفكرية العربية المعاصرة:

المتفحص لمختلف الدراسات الحديثة حول الخطاب الديني يجد أن مفهومه يدور حول المعاني الآتية:
- "نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، وتفترض فيه التأثير على السامع أو القارئ، مع الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تم فيها" (أحمد عبد الله الطيار، 2005، ص 12).
- "الوصف السليم والفهم الصحيح للإسلام في عقيدته ونظامه الأخلاقي وأدابه وشريعته" (Alarabnews.com).

- "الخطاب الديني هو استخدام الحجة الدينية في الحكم على ما استجد للمسلمين في حياتهم المعاصرة" (شوقي علام، www.youm7.com)

- "الخطاب الديني هو كل حديث مقروء أو مسموع أو مرئي، فهو يشكل لونا من ألوان الخطاب للآخر، فالخطاب الديني - ونقصد به الخطاب الإسلامي لا يتوقف على كتابة أو كلام فحسب، إنما يتعداه ليشمل كل ألوان الخطاب الذي يمارسه المسلمون بعلمائهم ومؤسستهم ومؤلفيهم وهكذا المسلمون القادرون على ذلك الأداء، وغاية هذا الخطاب هو إيصال مضامينه وأفكاره إلى الآخر" (على رمضان الأوسى،

(www.taghrib.org/pages/content.php)

فالخطاب في هذا المجال يختلف عن مفهومه في الدراسات الأدبية والنقدية التي تقابله بمفهوم النص، وتعدّه قولاً شفهيّاً في سياق محدد موجهاً لمتلق بعينه في ظروف وحيثيات خطابية معينة. فهو في مجال الدراسات الإسلامية والشرعية يشمل كل منطوق ومكتوب يتضمن آراء وتأويلات محكومة بظروف زمانية واجتماعية وثقافية بارزة، غرضها التأثير على السامع بمختلف الحجج التي يختارها الكاتب، والتي يراها أنها تتناسب مع حال المتلقين وظروف تلقيهم.

"هنا يظهر الخطاب الديني كخطاب قوى ومؤثر ويتمتع بنوع من القبول الشعبي والرضا النفسي والاطمئنان تجاه نواياه إن لم يكن لأفعاله، فعلى الأقل لتمسحه في الدين واحتكامه، ولو في الظاهر، إلى الإسلام كحل لمشاكل المجتمع ككل" (محمد عبد الفتاح مصطفى ، 2017، ص11).

فالخطاب الديني بهذا التوجه يعتلي الصدارة ويصدر عن السلطة المركزية التي تستند بدورها على مرجعية دينية ثابتة متورثة تسيج بها المجتمع ككل مع احترام باقي الأقليات الأخرى، ويستمد هذا الخطاب شرعيته من العناصر الآتية:

-الخطاب الديني كقوة مؤثرة: فالدين، بصفته خطاباً، يمتلك قوة تأثير واضحة في المجتمع هذا

يعني أن ما يُقال أو يُكتب في سياق ديني يُحَبِّد ويُعطى أهمية من قبل الناس.

-القبول الشعبي والرضا النفسي: الجماهير تتقبل هذا الخطاب وتشعر بالراحة والطمأنينة تجاهه، حتى لو لم تكن أعمال هذا الخطاب دائماً مرضية أو فعالة، فإن القبول يأتي من المشاعر المرتبطة بالدين. -التمسح في الدين: فالتمسح في الدين يعني مدى ارتباط هذا الخطاب بالدين الإسلامي الذي يُعد عنصراً مهماً في كيفية استقبال الناس له. إنه يُظهر الشكل الخارجي للخطاب، خاصة عندما يتحدث عن الدين ويعتمد عليه كمرجعية لحل مشاكل المجتمع.

-الإسلام كحل لمشاكل المجتمع: الدين، لا سيما الإسلام، يُعد حلاً مُحتملاً للمشاكل التي تواجه المجتمعات، هذا يسلط الضوء على الدور الذي يُعطى للدين في تقديم الحلول والتوجهات للنهوض بالمجتمع.

الخطاب الديني يتمتع بقبول كبير في المجتمع، حيث يُنظر إليه كمرجع موثوق لحل المشكلات، حتى وإن كانت النتائج الفعلية لهذا الخطاب غير مرضية دائماً.

"وعندما ننسب الخطاب إلى الدين، ونحن هنا نقصد الدين الإسلامي قطعاً، وإن كان يسمى الخطاب الديني غير الإسلامي خطاباً دينياً، كالخطاب الديني النصراني، واليهودي... حتى إنه حينما أطلق الغرب هذا المصطلح قصد به خطاب الإسلام والإسلام هو الدين الذي نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلب نبينا محمد ليكون من المنذرين للناس كافة بلسان عربي مبين، ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم العزيز الرحيم" (محمد عبد الفتاح مصطفى، ص 16).

يتسم الخطاب الديني عند الونشريسي بمرجعيته المستمدة من الينابيع الصافية للشريعة الغراء دون مغالاة أو تفریط، فهو تجديد في عصره لا تبديد، وتطوير لا تحريف، يحترم واقع المسلمين وينهض بحلول

لمشاكلهم وحياتهم، دون انغلاق على الخطابات الدينية الشرقية بتفاصيلها وحوادثها التي أصبحت ركاما تاريخيا وتراثا لا يصح الوقوف عنده فقط، إنما أصبح الواجب والمفترض أن يؤخذ منه ليضاف عليه.

ثانيا: الشروط الشكلية والمضمونية في كتابة المقدمات عند العلماء العرب القدماء:

- ماهية المقدمة:

"المقدمة بفتح الدال وكسرهما كما صرح به جماعة من المحققين وليس الفتح بخلف كما قيل وهي تصدق على ما ذكره أهل الاصطلاح من جعل المقدمة منقسمة إلى قسمين مقدمة علم ومقدمة كتاب. فمقدمة العلم ما يتوقف الشروع على بصيرة عليها لأنها تكون مشتملة على الحد والموضوع والغاية والفائدة.

ومقدمة الكتاب ما يوجب الشروع بها زيادة في البصيرة ولا ريب أن شروع طالب علم الفقه بهذه المقدمة يوجب له زيادة في البصيرة لأنه يعرف بمعرفتها حقيقة التقليد وما يجوز التقليد فيه وما لا يجوز ومن يجوز تقليده ومن لا يجوز ونحو ذلك" (محمد بن علي الشوكاني، 2004، ص 9).

وقد ذكر أئمة اللغة أن المقدمة ما يتقدم أمام المقصود ومنه مقدمة الجيش. فمن قال: المقدمة، معناه: المتقدمة، ومنه قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (سورة الحجرات الآية 1)، أي: لا تتقدموا: يقال: قَدَّمَ، وتقدَّم، واستقدَّم: بمعنى واحد. ومُقَدِّمَة الجيش: بكسر الدال من هذا. ومن قال المقدمة: أراد التي قُدِّمَتْ (الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، 2009، ص 1269)، وهذا الوجه في تفسير الآية الأولى من سورة الحجرات أحد الأوجه الثلاثة التي قال بها علماء التفسير، واستدل بها هنا المحقق لإثبات ورود كلمة مقدمة بكسر الدال.

أما بعض المؤلفات العربية القديمة التي حملت تسمية (المقدمة) فلأجل شهرتها، لأن أي متن يصبح عمدة في فن ما يمكن أن يسمى مقدمة، ك (مقدمة ابن الصلاح) و (المقدمة الآجرومية) و (مقدمة أصول التفسير) لابن تيمية، و (مقدمة ابن خلدون) وغيرها.

كتابة المقدمات في مؤلفات العرب القدماء تعكس جوانب مهمة من فكرهم وأساليبهم الأدبية والعلمية، إنها تشكل جزءاً أساسياً من البنية الأدبية والفكرية للمؤلفات في مختلف المجالات، سواء كانت أدبية أو نقدية أو علمية. هذه المقدمات لا تكتفي بتمهيد الموضوع فقط، بل تُعد أساساً لما يأتي بعدها من فصول ومفاهيم.

"نظر علماء البلاغة إلى الكلام الواحد الذي له مقدمة تمهيدية هي بدايته، وموضوع مقصود بالذات هو وسطه، وله مؤخرة يكون بها ختامه، فرأوا التنبه على لزوم توجيه العناية لثلاثة أمور:

- البدء بالمقدمة التي فيها براعة استهلال، وحُسْنُ التأثير في المتلقي، مع خلوها ممَّا يُسْتَنَكَّرُ أو يُتَشَاءَمُ به وسمَّوا حُسْنَ اختيار البدء البديع: "براعة استهلال"

- التخلص من المقدمة بأسلوب حَسَنٍ بديع للدخول في الموضوع المقصود بالذات، وسمَّوا حُسْنَ الانتقال من المقدمة إلى الموضوع الرئيسي في الكلام: "حُسْنُ التخلص"

- الختام الذي ينقطع عنده الكلام، وسَمَّوْا حُسْنَ اختيار الختام الحَسَنَ الجميل الملائم: "براعة المقطع" أو "براعة الختام"

وقالوا: ينبغي للمتكلّم أن يتأنّق في مقدّمة كلامه، وفي التخلّص منها إلى مقصود بالذات، وفي الختام" (عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي، 1996، ص 558).

سنحاول في هذا المبحث أن نتناول أهم الخصائص التي وسمت مقدمات القدماء ومدى توافر ذلك في النموذج الذي اخترناه من مؤلفات الونشريسي.

لقد اشترط أئمة الكتابة العرب القدماء أن تبنى المقدمة على أسس ثمانية، أو رؤوس ثمانية:

- 1- الغرض من تدوين العلم أو تحصيله: أي الفائدة المترتبة عليه لئلا يكون تحصيله عبثاً في نظره.
- 2- المنفعة: الفائدة المعتدّ بها ليتحمل المشقّة في تحصيله، ولا يعرض له فتور في طلبه
- 3- السّمة: عنوان الكتاب، ليكون عند الناظر إجمال ما يفصله الغرض.
- 4- المؤلّف: مصنّف الكتاب ليركن قلب المتعلّم إليه في قبول كلامه.
- 5- مجال الاشتغال: أي من اليقينيّات أو الظنّيّات، من النظريّات أو العمليّات، من الشرعيّات أو غيرها، ليطلب المتعلّم ما تليق به المسائل المطلوبة.
- 6- المرتبة: بيان مرتبته فيما بين العلوم. إمّا باعتبار عموم موضوعه أو خصوصه، أو باعتبار توقّفه على علم آخر، أو عدم توقّفه عليه، أو باعتبار الأهمية أو الشرف، لتقدّم تحصيله على ما يجب، أو يستحسن تقديمه عليه، ويؤخّر تحصيله عما يجب أو يستحسن تأخير عنه.
- 7- القسمة: وهي بيان أجزاء العلوم وأبوابها ليطلب المتعلّم في كل باب منها ما يتعلّق به، ولا يضيّع وقته في تحصيل مطالب لا تتعلّق به.
- 8- الأنحاء التعليمية: وهي أنحاء مستحسنة في طرائق التعليم، أحدها التقسيم، وهو التّكثير من فوق إلى أسفل، أي من أعم إلى ما هو أخصّ، كتقسيم الجنس إلى الأنواع، والنوع إلى الأصناف، والصنف إلى الأشخاص. وثانيها التحليل، وهو عكسه أي التّكثير من أسفل إلى فوق، أي من أخصّ إلى ما هو أعم (محمد بن علي الهانوي، 1996، ص 15-16).

-أهم خصائص المقدمات (خطبة الكتاب) في المؤلفات العربية القديمة:

1. الاستهلال بالحمدلة والصلاة على النبي-صلى الله عليه وسلم-: كانت المقدمات غالباً ما تبدأ بالحمد لله تعالى، والثناء عليه، والصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه. هذا يعكس التدين العميق للمؤلفين والرغبة في التبرك والاستعانة بالله في إتمام العمل.
2. الوظيفة التأسيسية: المقدمة في المؤلفات العربية القديمة تعتبر أساساً لما سيأتي بعدها من فصول. كما يُشير القلقشندي، فإن سنّة الكتاب جرت على أن تكون المقدمة سابقة ومؤسّسة لما سيأتي بعدها (أحمد القلقشندي، 1987، ص 267).

3. ذكر سبب التأليف: يحرص المؤلف على توضيح الدافع وراء تأليف الكتاب، سواء كان ذلك تلبية لحاجة معينة، أو تصحيحاً لمفاهيم خاطئة، أو إضافة جديدة إلى المعرفة الموجودة. هذا يساعد القارئ على فهم الهدف من الكتاب وأهميته.

4. الإشارة إلى أهمية الموضوع: يولي المؤلف اهتماماً كبيراً بتوضيح أهمية الموضوع الذي يتناوله الكتاب، وبيان قيمته العلمية أو العملية. هذا يشجع القارئ على الاهتمام بالكتاب ومتابعته.

5. تحديد نطاق الكتاب: يوضح المؤلف الحدود التي سيغطيها الكتاب، والمواضيع التي سيتناولها بالتفصيل، والمواضيع التي ستركها جانباً. هذا يساعد القارئ على معرفة ما يمكن أن يتوقعه من الكتاب.

6. ذكر منهجية الكتاب: يشير المؤلف إلى الطريقة التي سيعتمدها في عرض المعلومات وتنظيمها، سواء كانت طريقة تاريخية، أو تحليلية، أو مقارنة. هذا يساعد القارئ على فهم كيفية التعامل مع الكتاب والاستفادة منه.

7. التكميل: "تتسم المقدمة عموماً بالإيجاز، والتركيز، وبراعة الاستهلال. وكانت المقدمة تسمى في المؤلفات القديمة بخطبة الكتاب، وموجودة إلى الآن في الكتب المحققة" (جامعة المدينة العالمية، 2011، ص 219).

8. التواضع والاعتذار: غالباً ما يظهر المؤلف تواضعه واعتذاره عن أي نقص أو تقصير قد يقع فيه، مع الإشارة إلى أن الكمال لله وحده. هذا يعكس الأدب الجم والروح العلمية للمؤلف.

- طرائق كتابة المقدمات في المؤلفات العربية القديمة:

1. الطريقة الخطابية: تعتمد على استخدام اللغة البليغة والأسلوب المؤثر لجذب انتباه القارئ وإقناعه بأهمية الكتاب، غالباً ما تستخدم هذه الطريقة في الكتب الأدبية والدينية.

2. الطريقة العلمية: تركز على عرض الحقائق والمعلومات بشكل واضح ومباشر، مع الابتعاد عن الزخرفة اللغوية. تستخدم هذه الطريقة في الكتب العلمية والفلسفية.

3. الطريقة الأدبية العلمية: تجمع بين جمال الأسلوب ودقة المعلومات، بهدف تقديم المعرفة بطريقة ممتعة ومفيدة. تستخدم هذه الطريقة في الكتب التي تهدف إلى تبسيط العلوم للجمهور العام.

ثالثاً: آليات التأسيس الفكري والثقافي في مقدمات كتب الونشريسي:

معظم خطب كتب الونشريسي جاءت موجزة في افتتاحية كتبه بعضها لم يتجاوز الصفحة وقليل منها استطرد فيها الونشريسي في توضيح بعض الجوانب المستغلقة في المسائل التي عرضت عليه وفي العلم الذي تنتهي إليه، وبفحصنا لهذه المقدمات وملاحظتنا لعناصرها وجدنا أنها في أغلبها تخضع للرؤوس الثمانية التي حددها عمداً الكتابة في العصور التي سبقت الونشريسي، ويمكننا أن نفصلها كالآتي:

1-الاستهلال بالبسملة والحمدلة والثناء على الله عز وجل والصلاة والسلام على النبي محمد وآله وأصحابه:

ولعل أبرز مثال عن ذلك ما أورده في مفتتح مقدمة كتابه (المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق)، إذ قال: " الحمد لله الذي بحمده يفتتح ويختتم، ويستكمل كل أمر ذي بال ويستنم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أكمل به النبوءة والرسالة وختم، وعلى آله شمس الهدى، وأقمار الدجى وبدور الظلم، وأصحابه أعلام السنة وسلم صلاة وسلاماً دائمين يقيان الألم، ويوليان النعم، ويصرفان سوء البلايا والنقم، أما بعد" (الونشريسي، 2005، ص 3).

يعد هذا النوع من الاستهلال عرفاً وتقليداً أدبياً دأب العلماء العرب القدماء على تدبيج مؤلفاتهم به، بالإضافة إلى أنه يتضمن في طياته وظيفة مرجعية وانفعالية وحجاجية، بها يتقرب المؤلف إلى الله عز وجل، ويكشف عن حقيقة العقيدة الإسلامية في نفسه، ويشكره على نعمة العلم وتوفيقه له، وإقراره له بالعجز الإنساني والضعف البشري، وتوكله عليه في الأمور كلها، كما يعد ذلك اقتداء بسنة الرسول محمد صلى الله عليه الذي كان يفتتح خطبه ورسائله بالبسملة والحمدلة، ومن جهة أخرى يعد هذا الاستهلال وسيلة وتحفيزاً لجلب انتباه القارئ، وإعداده لتلقي الخطاب الذي يلي المقدمة.

وكيف يحيد الونشريسي وغيره عن ذلك وأن الله تبارك وتعالى استفتح كتابه المبين بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الفاتحة الآية 1) فاستفتح أفضل الكتب وأشرفها وأجلها على الإطلاق وهو القرآن بقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ وهذا دليل بعض العلماء على أنه يشرع استفتاح كتب العلم بحمد الله عز وجل.

وفي باب الخطب في كتاب البيان والتبيين " أن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يُسَمُّونَ الخُطْبَةَ التي لم تُبْتَدَأْ بالتحميد، وتُسْتَفْتَحُ بالتمجيد: البتراء ويسمون التي لم توشح بالقرآن، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: الشوهاء" (الجاحظ، ج2، ص6).

2- ترجمة موجزة له ذكر فيها اسمه ونسبه، وأصله، ومنشؤه واستيطانه وقراره:

في كتاب المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق يقول الونشريسي: " أضعف عبید الله الآوي إلى كرم مولاه، وشاكره على الذي أولاه العبد المستغفر الفقير، الحقيّر أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد ابن علي الونشريسي الأصل التلمساني المنشأ، الفاسي الاستيطان والقرار، وفقه الله لما يحبه الله ويرضاه أمين" (الونشريسي، ص3).

يُعد هذا النوع من المعلومات التي تقدم في بداية المؤلفات وسيلة للتقديم الشخصي للمؤلف، الذي يساعد القارئ على فهم خلفية المؤلف وخبرته في المجال الذي يكتب فيه، كما يُعد ذكر النسب والأصل جزءاً من التقاليد الأدبية والاجتماعية، إذ يُظهر هذا التقليد احتراماً للعائلة والتاريخ الشخصي، ويمكن أن يُعد جزءاً من الهوية الثقافية للمؤلف، وفيه تبرز التأثيرات الثقافية أو العائلية التي ساهمت في تشكيل أفكار المؤلف أو أسلوبه الأدبي.

وفي بعض الأحيان يُستخدم ذكر النسب والأصل كوسيلة لتأريخ وتوثيق المعلومات حول المؤلف، مما يمكن أن يكون مفيداً للباحثين أو القراء الذين يهتمون بالسياق التاريخي والثقافي للمؤلف.

3- تحديد نطاق الكتاب والإشارة إلى أهمية الموضوع:

بعد استهلال الونشريسي بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وذكر نسبه وأصوله ومتقلبه يحدد مجال اشتغال عمله ويشير إلى موضوع تأليفه، ليوجه ذهن القارئ مباشرة إلى العلم الذي يشتغل وتحصل الفائدة منه، ومن ذلك قوله في مقدمة كتاب (المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق)

"فإني لما رأيت علم الوثائق من أجل ما سطر في قرطاس، وأنفس ما وزن في قسطاس، وأشرف ما به الأموال، والأعراض والدماء، والفروج، تستباح وتحى، وأكبر زكاة للأعمال وأقرب رحمي، وأقطع شيء تنبذ به دعوى الفجور وترمى، وتطمس مسالكها الذميمة وتعمى، وكان جمهور المنتصبين في هذا الوقت لعقدها قد قصر عن إحكام أحكامها باعهم، وقل في مجالها الرحب انطباعهم، واطرحوا أسرارها، وهتكوا أستارها ونبذوا دقائقها المهمة إلى وراء واقتصروا على المسطرة حتى أكل شرار الخلق بالباطل أموال الورى رأيت على إضاعتي وقلة بضاعتي أن أضع مقالة جامعة في طريقته المثلثى نافعة - إن شاء الله - تحفظ وتتلّى يحفظها الذكي والبليد وينتفع بها الشيخ والوليد تغني من سار بسيرها عن مطالعة الكثير من غيرها، وترجمتها:

بالمناهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق" (الونشريسي، ص 3).

فقد بين أن مجال اشتغال هذا العمل سيكون في علم الوثائق، وأن هذا العلم له دور حيوي في حماية القيم والحقوق والأمور الحيوية في المجتمع، ويقصد به الكتابة القانونية أو الصكوك التي تضمن حقوق الأفراد؛ مثل العقود والمستندات الرسمية.

وما يُكتب على الورق (القرطاس) له قيمة كبيرة، فهو وثيقة تحمل حجية قانونية وشرعية، تحمي حقوق الأفراد والمجتمع. والوثائق تُعتبر من أهم الأمور التي تُقيّم في الحياة، فهي تضمن العدالة والنزاهة، وتحمي القيم الأساسية للمجتمع مثل المال والأعراض (السمعة والكرامة) والأرواح والعلاقات الأسرية، كما أنها تقضي على الدعاوى الباطلة وتعزز نزاهة العدالة، وتساهم في طمس الطرق الفاسدة والممارسات السيئة في المجتمع.

فهذا العلم يهتم إذن بالمسائل والقضايا المسجلة في الوثائق سواء كانت مدنية أو تجارية أو منازعات بين الأشخاص.

وتكمن أهمية هذه الخطوة في كتابة مقدمة هذا الكتاب العبارة في تنبيه المتلقي إلى أن علم الوثائق يُعد أداة محورية في دعم العدالة وحماية القيم الأساسية من خلال تنظيم العلاقات وضمان الحقوق، إذ يُظهر عمق الفكرة كيف أن الوثائق ليست فقط مجرد أوراق بل هي أساس لاستقرار المجتمع وصيانتها من الفساد والانتهاكات.

كل هذه العناصر جمعها في سمة بارزة للكتاب وهي " المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق"، وقد وافق فيه الونشريسي من سبقه في فنيات صياغة العنوان التي يتسم بالطول، باستيفاء المطلوب، والجرس الموسيقي بين سجعته الذي يضيف إيقاعاً خاصاً على المتن ككل. غير أن التحليل السيميائي لهذا المؤلف يظهر مدى اضطراب المؤلف لهذه الصياغة المطولة للعنوان، والتي تتشكل وفق الأجزاء الآتية:

- المنهج الفائق:

- المنهج: يشير إلى الطريقة أو الأسلوب الذي يتبعه الباحث أو الكاتب، وفي هذا السياق، يبدو أن "المنهج الفائق" يدل على أسلوب متقدم أو متفوق في دراسة أو تحليل موضوع الكتابة والتوثيق في الفقه الإسلامي.

- الفائق: المنهج يتجاوز ما هو معتاد، مما يشير إلى نهج مبتكر أو غير تقليدي في دراسة الوثائق وأدائها.

- المنهل الرائق:

- المنهل: يُفهم على أنه مصدر أو ينبوع للمعرفة، في هذا السياق، يمكن اعتبار المنهل كمرجع أو مصدر غني للمعلومات.

- الرائق: تشير الكلمة إلى شيء نقي أو صافٍ، مما يعكس وجود معلومات دقيقة وواضحة. وبالتالي، يعبر هذا الجزء من العنوان عن أهمية المصادر الموثوقة والمفيدة في العلم المعني.

- المعنى اللائق:

- المعنى: يشير إلى المعاني والدلالات المرتبطة بالموثق وأحكام الوثائق.
- اللائق: يُفهم على أنه المعاني المناسبة أو الملائمة للموضوع. هذا يمكن أن يعني أن هناك ضرورة لفهم السياق الثقافي والاجتماعي الذي تحيا فيه الوثائق، ويؤكد على أهمية التفسير العميق للنصوص القانونية.

- بأداب الموثق وأحكام الوثائق:

- آداب الموثق: تُشير إلى الأخلاقيات والسلوكيات المرتبطة بالشخص الذي يتعامل مع الوثائق، سواء كانوا موثقين أو كتاباً قانونيين. هذا الجانب يعكس الخصوصية والمهنية اللازمة في التعامل مع الوثائق.

- أحكام الوثائق: تعني القوانين والأنظمة التي تحكم كيفية إنشاء الوثائق واستخدامها. من الواضح أن هذا يشير إلى القوانين الشرعية أو القانونية التي ينبغي أن تُراعى في التعامل مع الوثائق الرسمية.

يجمع العنوان بين عدة مفاهيم رئيسية: يبدأ بتسليط الضوء على منهجية متقدمة (المنهج الفائق) في استكشاف موضوعات متعلقة بالوثائق وأخلاقيات التعامل معها، مع التأكيد على ضرورة فهم المعاني والدلالات بشكل دقيق (المعنى اللائق).

يرز العنوان أهمية السياقات الأخلاقية والقانونية في عملية التوثيق، مما يشير إلى العلاقة الوثيقة بين المعرفة، الأخلاق، والقانون في هذا المجال.

-السياق التداولي:

من الناحية التداولية، العنوان يلفت الانتباه إلى أهمية السلوك المهني في الوثائق والأحكام القانونية، مشيرًا إلى ضرورة تطوير مهارات فهم السياقات القانونية والمعرفية بشكل متسق ومتكامل. كما يعكس اللغة الأكاديمية والتخصصية المستخدمة في السياقات القانونية والتعليمية.

4-منهجية التأليف:

في هذا الكتاب على غير العادة يحرص الونشريسي على بسط منهجيته وخطته في تتبع قضايا ومساائل موضوع كتابه، وفي ذلك يقول: " وحصرته في ستة عشر باباً: الباب الأول: في حكم الكتب والإشهاد، وسبب مشروعيتها. الباب الثاني: في شرف علم الوثائق، وصفة الموثق، وما يحتاج إليه من الآداب. الباب الثالث: في حكم الإجارة على كتابتها، وفي وقت تعيينها، وتعيين دافعها، وفي حكم الشركة المستعملة بين أربابها.

الباب الرابع: فيما ينبغي للموثق أن يحترز منه ويتفطن إليه. الباب الخامس: في الأسماء والأعداد والحرف التي تنقلب وتتغير بإصلاح يسير. ... " (الونشريسي، ص 4-5).

5-سبب التأليف:

أغلبية كتب الونشريسي جاءت استجابة لأسئلة طرحت عليه في مجالس العلم والتدريس حول بعض المسائل الفقهية المختلف حولها، ومثال ذلك ما ذكره الونشريسي في كتابه: " ذكر المؤلف في مقدمة الكتاب - على عادة القدامى - السبب الذي دفعه إلى تأليفه وهو أن سائلاً سأله أن يجمع له ملخصاً في الفقه، يربط الفروع بأصولها، ويكون سهل المأخذ، محكم البناء، وعلى الرغم من أن المؤلف استصعب الإيفاء بمثل هذا الطلب في البداية فإنه قال: قد وَفَّى بما طُلب منه على وجه أفضل مما أمل السائل " (الونشريسي، 2006، ص 39).

يمكننا استخلاص العديد من الدوافع الثاوية وراء تحديد المؤلف سبب قيامه بعملية التأليف، نقتصر على فيها على العناصر الآتية:

-الدوافع النفسية:

- القلق والتحدي: المؤلف يظهر في البداية قلقاً مرتبكاً حول تلبية توقعات السائل، هذا السلوك يدل على شعور بالمسؤولية والمهنية، إذ إن المؤلف يدرك أهمية الجمع بين الفروع والأصول في الفقه.
- الإحساس بالتحصيل: عند انتهاء المؤلف من الكتاب بشكل أفضل مما توقع، هناك تلق اجتماعي للشعور بالتحقق والنجاح. الراحة النفسية في تلبية الطلب بالشكل الأفضل تفيد في تعزيز الثقة بالنفس.

- العلاقات الاجتماعية:

- الإحساس بالمجتمع: الاهتمام بتساؤلات المتلقين ومشاكلهم يُظهر دور المؤلف كمعلم وموجه في مجتمعه، مما يعكس طابعاً ثقافياً يعتمد على نقل المعرفة كمهمة جماعية وليس فردية فقط.
 - المسؤولية تجاه المتلقي: استجابة المؤلف للطلب تعكس التزاماً أخلاقياً في التعليم، إذ إن الاثنين (المؤلف والسائل) يمثلان أيقونات للمعرفة، مما يعزز دورهم الاجتماعي.
- السياق الثقافي:

- التأصيل في التراث: الإشارة إلى "عادة القدماء" تدل على الاحترام للتقاليد الثقافية، وتُظهر كيف أن المعرفة تُعتبر إرثاً متجدداً، فالتقليد الفكري يُظهر مدى تأثير الأسلاف في تشكيل منهجية التفكير وتطوير الفقه.
 - الاهتمام بالسهولة والوضوح: يُبرز طلب السائل الرغبة في الحصول على المعلومات بشكل يسير ويساعد على فهم أعمق، مما يعكس القيم الثقافية المرتبطة بالتعليم في ذلك الوقت.
- فكل ذلك إذن يعكس تفاعلاً معقداً بين المؤلف والسائل والسياق الثقافي الذي ينتميان إليه. هناك إحساس بالمسؤولية والتحدي لدى المؤلف، هذه الديناميكيات النفسية والاجتماعية تُظهر كيف يمكن أن تتشابك العلوم، التوقعات والمسؤوليات في سياق إنتاج المعرفة.
- #### 6- التواضع والاعتذار:

- وفي حسن التخلص من المقدمة يعترف المؤلف بقصوره ومحدودية علمه في الإحاطة بالموضوع الذي يتصدى بالتأليف فيه، ومن شيم العلماء إظهار تواضعهم أمام بحور العلم الممتدة، ففوق كل ذي علم عليم، وهو ما نجده في معظم مؤلفات الونشريسي، إذ يذيل مقدمة كتابه بعبارات التواضع الآتية: "والله أسأل متقرباً إليه، ومتواضعاً بين يديه أن يجعله من نافع الأعمال لديه خالصاً لجلاله محسوباً للعبد الفقير المذنب في حسنات أفعاله، كما أسأله جل اسمه أن يستر قبائح جهلي، وأن يغفر لي ولكافة أهلي، فهو الذي لا إله غيره" (الونشريسي ص 5).
- يظهر معظم مؤلفي الكتب تواضعهم واعترافهم بقصورهم في نهايات مؤلفاتهم لأسباب نفسية واجتماعية متعددة، يمكن تلخيصها فيما يلي:
- الإنسانية والضعف البشري:

- إظهار الضعف البشري: الاعتراف بالنقص يُظهر أن المؤلف إنسان، مما يساعد القارئ على التواصل معه بشكل أعمق، مما يعزز علاقة الإنسانية والتعاطف، فيدرك حينئذ القراء أن حتى المحترفين لديهم حدود.

تجنب الغرور: التواضع في الكتابة وسيلة لتجنب الغرور والتفاخر.

ويعلمنا الونشريسي من خلال ذلك أن العلم لا ينال إلا بالتواضع وإلقاء السمع، وتواضع الطالب لشيخه رفعة، وذُلُّه له عزٌّ، وخضوعه له فخر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ذُلُّتُ طالباً، فعزُّتُ مطلوباً" (ابن عبد البر، 1994، ص 474).

- تشجيع التفكير النقدي: الإقرار بقصور في العمل يشجع القراء على التفكير النقدي والتفاعل مع النص بشكل أعمق، إذ يُحسِّن هذا من قدرة القارئ على البحث والاستفسار، مما يسهم في تطوير المعرفة.
- فتح المجال للنمو الشخصي: من خلال الإشارة إلى النقص، يشجع المؤلف القارئ على استكمال العمل من خلال دراسات أو أفكار إضافية، مما يدعم التعلم المستمر.
- تقليد ثقافي:
- التراث الأدبي: العديد من الثقافات الأدبية تشجع على إظهار التواضع والاعتراف بالنقص كجزء من التقاليد الفكرية. التأثيرات التاريخية لنماذج الكتابة تُسهم في تشكيل هذه السلوكيات.
- المسؤولية التعليمية: في بعض الثقافات، يُعد الاعتراف بالنقص جزءًا من واجب المؤلف تجاه تعليم الآخرين، إذ التواضع وسيلة لتقديم النصائح دون الزعم بالكمال.
- إظهار التواضع والقصور في نهاية المؤلفات يُعتبر استراتيجية فعّالة لها تأثيرات إيجابية على انطباع القارئ والعلاقة الإنسانية بين المؤلف والجمهور. يُعزز هذا السلوك من قيمة العمل الفكري ويلهم الأجيال القادمة للمشاركة في البحث والنقاش المثمر والمستمر.

الخاتمة:

تعد المقدمات جزءًا بالغ الأهمية في المؤلفات العربية القديمة، إذ تلعب دورًا محوريًا في تقديم النصوص وتوجيه القارئ لفهم المحتوى بشكل أعمق، هذه المقدمات ليست مجرد إشارات تمهيدية، بل تعكس بعمق رؤى الفكر والسياق الثقافي الذي نشأت فيه.

وخطاب المقدمات عند الونشريسي غالبًا ما يذكر فيه الغرض من وضعه هذا الكتاب أو ذاك المؤلف، مما يساعد القارئ على فهم ما يتوقعه من المحتوى، هذا التحديد يُقدِّم إطارًا مرجعيًا يمكن القارئ من تحليل واستيعاب الأفكار المعروضة، إضافة إلى أنه يقدم معلومات حول الظروف التاريخية والثقافية التي كُتِب فيها المؤلف، كما يوفر هذا السياق خلفية مهمة لفهم المضمون والتوجهات الفكرية التي يعكسها النص، مما يُنير طريق القارئ لفهم المفاهيم والأفكار بشكل أفضل.

في كثير من المؤلفات يقوم المؤلف بتوجيه القارئ حول كيفية قراءة الكتاب والتفاعل معه. هذا يمكن أن يتضمن توضيحات حول المنهجية، أو النقاط المحورية التي يجب أن يركز عليها القارئ، مما يعزز من تجربة القراءة ويجعلها أكثر فاعلية.

وعموما يمكن القول إن خطاب المقدمات في المؤلفات العربية القديمة يحمل في طياته العديد من الأبعاد التي تعزز من قيمة النص وتوجيه القارئ، تتجاوز هذه المقدمات دور التمهيد، لتكون عبارة عن بوابة تعكس الهوية الثقافية والفكرية للمؤلف، وتقدم نظرة متكاملة عن المحتوى. بالتالي، يُعتبر تقدير هذا الخطاب أساسيًا لفهم التراث الأدبي والفكري العربي.

قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم برواية ورش

- أحمد عبد الله الطيار (2005) تأويل الخطاب الديني في الفكر الحدائثي الجديد»، حولية كلية أصول الدين القاهرة، العدد (22)، المجلد الثالث.
- أحمد القلقشندي، (1987) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح: يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، الجزء السادس.
- أحمد كمال أبو المجد - مقالة بعنوان حول الخطاب الديني المعاصر - منشورة على موقع Alarabnews.com 12 L3L2014
- أصول البحث الأدبي ومصادره، (2011) جامعة المدينة العالمية.
- الجاحظ، البيان والتبيين، بيروت، لبنان، دار ومكتبة الهلال، ج2.
- عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني دمشقي، (1996) البلاغة العربية، دمشق، دار القلم، ج2.
- شوقي علام نحو خطاب ديني جديد - جريدة اليوم السابع العدد 1012 - السبت 8 مارس 2014
- الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، (2006) تفسير الإمام الشافعي، تح: أحمد بن مصطفى الفرّان، المملكة العربية السعودية، دار التدمرية، ط1.
- ابن عبد البر، (1994) جامع بيان العلم وفضله، تح: أبو الأشبال الزهيري، السعودية، دار ابن الجوزي، ط1.
- على رمضان الأوسى ثقافة التقريب في الخطاب الديني المعاصر والعلاقة بالآخر - المؤتمر الدولي الـ 24 للوحدة الإسلامية - طهران 2011 ص1، منشور على موقع <http://www.taghrib.org/pages/content.php?tid=33>
- محمد بن علي الشوكاني، (2004) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، بيروت، لبنان، دار ابن حزم، ط1
- محمد بن علي التهانوي (1996) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، بيروت، تح: عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1.
- محمد عبد الفتاح مصطفى، (2017) الخطاب الديني تجديد لا تبديد...تطوير وتحريف، مصر، دار كنوز، ط1.
- الونشريسي (2005) المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداب الموثق وأحكام الوثائق، تح: عبد الرحمن الأطرم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط1.
- الونشريسي، (2006) إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك، تح: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، بيروت، لبنان، دار ابن حزم، ط1.